الأستاذة شيكو يمينة

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية
بوزريعة

البعد الفلسفي في التاريخ
ودوره في تكوين الأستاذ الإطار

إن تقييم التاريخ والجغرافيا في المنظومة التربوية مسألة يطرحها الواقع الفكري والواقع التربوي على المستوى الجامعي بشكل خاص وعلى كل المستويات بشكل عام. وبطبيعة الحال لا يمكننا الفصل بين الجانب الفكري والواقع، لأن أحدهما يحرك الثاني.

وسأركز اهتمامي هنا على التاريخ.

إن المشكلة المطروحة هي كيف نقدم مادة التاريخ؟ هل نقدمها كوقائع وأحداث محترمين التسلسل الزمني والترتيب المنطقي لها، أم نقدمها رفقة أحكام؟ وما هو المقياس الذي نختار به محاور التاريخ؟

إن الدراسات الفلسفية التاريخية في العصر الحاضر سواء التي قام بها المؤرخون أو الفلاسفة صارت تنظر للتاريخ نظرة خاصة فيها تجاوز كبير إلى النظرة التي ترى أن التاريخ عبارة عن سرد وقائع تاريخية بكل موضوعية بعيدا عن الذاتية. يقول (لويس غوتشلك) Louis Gottschalk

(ولد سنة 1899) المفكر التاريخي الأمريكي المعاصر، في كتابه (كيف نفهم التاريخ): "يحتاج المؤرخ إلى بعض القواعد الفلسفية لا ليضع تاريخا يتجاوز مجرد تبويب الحقائق بل أيضا لكي يحكم في فطنة على الكتابات التاريخية التي ينتجها غيره... وأن تكون لديه فلسفة في الأهداف ومقياس للصالح والطالح"[1].

إن أهمية هذا القول تكمن في تلك الدعوة إلى مبادئ فلسفية وأخلاقية نقيس بها التغير والإستمرار والتطور، والنمو والركود أو الإنحلال... إلخ. وفي هذا المجال نجد العديد من الدراسات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الدراسة التاريخية التي قام بها المؤرخ الإنجليزي (أرنولد توينبي) Arnold Toynbee (1889-1975) في إثني عشر مجلدا تحت عنوان (دراسة التاريخ A study of history)، عرض فيه تطور المجتمعات الحضارية وغير الحضارية في إطار نظرية فلسفية هي نظرية (التحدي والإستجابة).

والمهم في هذه الدراسة هو تلك المبادئ التي وضعها ليحكم بها على تغير المجتمعات، فهو يرى أن المجتمع ينشأ وينمو ويزدهر بقدر ما يقدمه من استجابات ناجحة اتجاه التحديات التي تتحداه، مع العلم أن التحديات تختلف في طبيعتها. فمنها البشرية ومنها الطبيعية. وتجاوز هذه التحديات أو الإستسلام لها هو الذي يحدد طبيعة تغير المجتمعات ومستقبلها.

---

(1) لويس غةتشلك: كيف نفهم التاريخ. ترجمة: د. عائدة سليمان عارف، د. أحمد مصطفى أبو حاكم. دار الكتاب العربي، بيروت - 1966، ص 22-23.

ومن ناحية أخرى تطرح قضية تخير موضوع التاريخ.

فاختيار المواضيع لا يخلو من مشاكل. يقول (أرنولد توينبي) في كتابه (تاريخ البشرية): "فأي حكاية مهما كان الأمر الذي تعالجه، لا بد من أن يرافقها اختيار. فالإختيار لا مفر منه، وهو أيضا أمر تحكمي حتما، وبقدر ما تكون مادة الأخبار التي يطلب الاختيار منها أكبر، يكون النقاش حول تخير الباحث اشد، وعلى سبيل المثال فإن الإختيار من الأحداث التاريخية الذي بدا مقبولا سنة 1897 قد ظهر غريبا سنة 1973"[2].

وهذا النص بالرغم مما يطرحه من مشكلة اختيار للوقائع التاريخية عند التأليف، فإنه محاولة إلى التلميح إلى أن اختيار الموضوع يجب أن يتماشى مع الواقع. بمعنى أن تسطر له أهداف. وهنا تطرح قضية تقييم التاريخ في المنظومة التربوية. كيف نختار مادة التاريخ المقدمة؟ وعلى أي أساس؟ هل نقدمها في ضوء متطلبات الواقع؟ أم نقدمها على أساس التعرف على ماضي البشرية فقط؟

إنه في كلا الحالتين سنحتاج إلى مقياس للإختيار وانتقاء الأخبار التاريخية.

فإذا كان الهدف هو ربط الفكر بالواقع يكون لزاما علينا أن نقدم المادة التاريخية في ظل أحكام تجعل المتلقي أو الطالب يمتلك وعيا تاريخيا فيه تطلع إلى فهم الواقع والتفكير في النهضة، بشكل فيه واقعية ونضج فكري. وهنا يمكن الإشارة إلى طريقة (ابن خلدون) في تقديم الأخبار التاريخية وكيف أرفقها بأحكام فيها تقييم للأحداث، تحمل وراءها

(2) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية. ترجمة: د.نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص 13.

أهدافا بناءة لا تخلو من فلسفة. ويتضح ذلك من خلال تعريفه التالي للتاريخ قائلا: "هو في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق" (المقدمة).

فنظرة ابن خلدون للتاريخ على أن له ظاهر وباطن لها أهمية في هذا المقام، لا يمكن تجاهلها، ولعل هذا ما جعل المفكر الجزائري المعاصر (مالك بن نبي) (1905-1973) يشير إليه في كتابه (شروط النهضة) بأنه المؤرخ الأول الذي تمكن من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه فكان بذلك المؤرخ الأول الذي قام بالبحث في هذا المنطق.

كما أن مالك بن نبي له نظرته الخاصة عن دور التاريخ وأهميته يتلخص في قوله: "إن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما يطلق عليه اسم حضارة"[3].

وهذه النظرة يعمقها (مالك بن نبي) ونستشفها من خلال سلسلة كتبه التي وضعها تحت عنوان (مشكلات الحضارة) وبشكل خاص في كتابه (ميلاد مجتمع).

فما يمكن استخلاصه من كل ما تقدم هو أن مادة التاريخ في المنظومة التربوية من الضروري أن تكون فيها مراعاة للواقع ومتطلباته، أي وضع

(3) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط1، دار العروبة، القاهرة، 1962ن ص 18.

أهداف ترمي إلى تكوين الوعي والنضج الفكري والتطلع إلى الرقي، ولكن شرط تكوين الأستاذ تكوينا يسير في هذا الإتجاه، لا يقتصر على معرفة التاريخ في ظاهره، كسلسلة أحداث في ترتيب زمني. بل من الضروري التطلع إلى نظريات التاريخ المعاصرة وما ترمي إليه من دراسة فيها تركيز على فهم الوقائع التاريخية من خلال فهم سلوك الشخصيات التاريخية والدوافع التي تحركها.

وهنا يمكن الإشارة إلى كتب المؤرخ الإيطالي المعاصر (بنديتو كروتشة) في نظرية التاريخ أهمها (L'histoire comme pensée et comme action) وكذلك الدراسات التي قدمها المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي المعاصر كولينجوود تحت عنوان (فكرة التاريخ) The idea of history.

هذه الكتابات وغيرها فيها منهجية لدراسة التاريخ وتقديمه بشكل أكثر عمقا، بمعنى بكيفية فيها إبراز لأبعاد الإنسان الفكرية والعملية، تهدف إلى معرفة الإنسان بنفسه، كما قال (كولينجوود) متسائلا عن هدف التاريخ، فأجاب قائلا: "أن هدف التاريخ هو معرفة الإنسان بنفسه... إن معرفتك بنفسك معناها معرفة ما تستطيع أن تفعل... من هذا يتضح أن قيمة التاريخ ترجع إلى أنه يحيطناعلما بأعمال الإنسان في الماضي، وإذن بحقيقة هذا الإنسان".[4]

(4) د.ج. كولينجوود: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، بإشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم، 1961، القاهرة، ص 44.